مسعود البارزاني

# البارزاني والحركة التحررية الكردية

الجزء الثالث

ثورة أيلول ١٩٦١ - ١٩٧٥

أربيل ٢٠٠٢

الآن أدّعي إنني أكره القتال .
فالقتال أسوأ السبل لحل الأمور .
الا أنّ البعث لم يترك لنا سبيلاً آخر
وليس في معنى اقتراحهم إلا النزول
طوعاً عن كركوك والمناطق الأخرى . وهو
من المحال . ألا فلنستقبل المصير
إن قُدّر لنا أن نهلك جميعاً فأنا أكره
أن يأتي الكرد ليبصقوا على قبري قائلين
"لماذا بعت كركوك ؟"

البارزاني
١٩٧٤

# الإهداء

إلى أبطال ثورة أيلول

إلى الشهداء الحرّية في كلّ مكان

# المقدّمة

تدويني لوقائع ثورة أيلول، كان عندي أسهل بكثير من ذلك الذي كتبته في «البارزاني والحركة التحررية الكُردية» لأنني عايشت الثورة من البداية. وكنت قريباً من مركز صنع القرار وجهازها العصبي. ثم صرت فيما بعد جزءً من ذلك المركز.

من ناحية أخرى كنت قد عُنيت بالمحافظة على الأرشيف الوثائقي الكبير للثورة. وهو المادة الأساسية التي لايمكن الإستغناء عنها لكل متصدٍّ لحدث تاريخي هامٍّ مماثل. وبسبب من هذا وجدت من الضرورة بمكان أن يكون ما وعته ذاكرتي من معلومات ودوّنتُه من ملحوظات وما وقيته من الوثائق من الضياع جزءً لايمكن الإستغناء عنه من بين الكثير الذي كتب عن ثورة أيلول.

التاريخ الفعلي لنشوب الثورة كان اليوم التاسع من أيلول ١٩٦١. وهو اليوم الذي هاجم فيه الجيش العراقي القوات الكردية في مناطق متعددة وأنجزت القوات الثورية فيه تحرير زاخو. لكن أعتُبر الحادي عشر منه التاريخ الرسمي لإندلاع الثورة لأنه كان يوم ظهور الطائرات الحربية العراقية في أجواء كُردستان ومباشرتها عمليات قصفٍ لأنحاء واسعةٍ شملت قرى وقصبات عديدة وبالأخص تلك القرى المنتشرة على جانبي طريق كركوك – السليمانية. والقرى المجاورة لسدّ دوكان ضمن دولي (وادي) خَلَكان.

لا أنكر مطلقاً أن عبدالكريم قاسم لم يلبث أن تنكّب سواء السبيل وبادأ الشعب الكردي بالعدوان والتنكّر لحقوقه المشروعة. لكن ليس من العدالة والإنصاف في شيء أن نحمّله كلّ التبعة وأن نعزو إليه كلّ الجرائم والفظائع التي أرتكبت بحق الثورة

والشعب الكردي في أثناء الثورة. فهناك جهتان تتقاسمان بعض المسؤولية. وعليَّ الإقرار بأن تعاملنا معه ومع نظامه لم يكن في معظم الأحيان يتّسم بالحكمة وبُعد النظر بل كان مشوباً بالتسرّع والطيش وعدم التبصّر بالأخطار التي كانت تهدد حكم قاسم ونظامه. كنّا نتصرف وكأننا دولة داخل دولة في بعض الأحيان، ليغدو ذلك عند قاسم مصدر قلقٍ وتحسّبٍ وتخوّف على الوحدة الوطنية المهددة. فأعطيناه بذلك حجة قوية إنتهزها الشوڤينيون الذين يحيطون به ولم يكونوا يكنّون له أيّ قدر من الإخلاص والولاء في حين كانوا يخصّون الشعب الكردي وتطلعاته القومية بأعظم الحقد ونجحوا في سعيهم الى جرّه نحو خندقهم وأقاموا جداراً من الشك وسوء الظنّ بينه وبين ملا مصطفى البارزاني والحزب الديمقراطي الكردستاني والشعب الكردي. وسعَوا سعياً حثيثاً لجرّه الى خندقهم كما حفروا أخدوداً من الجفوة والكُره بهدف تجريده من مناصريه والموالين له وعزله ليسهل عليهم التآمر والعمل على إزاحته بإحداث ذلك الإنقلاب الذي قضى عليه وعلى نظامه. أنا شخصياً أستبعد نجاح ذلك الإنقلاب لو بقي الحزب الديمقراطي الكردستاني ورئيسه البارزاني الى جانبه. وعليَّ في هذه المناسبة أن لا أغفل مسؤولية الأحزاب السياسية الكبيرة في إنحراف قاسم. لم يكن حريّاً بالشيوعيين والپارتيين أن يُخلوا الساحة للقوميين الشوڤينيين من خلال إبعاد أنفسهم عنه وترك ذلك الفراغ السياسي ليملأه المتآمرون، وليُتركوا أحراراً في نسج مكائدهم ومؤامراتهم وتوحيد تكتلاتهم التي نجحت بالأخير في القضاء عليه.

ومهما يكن؛ فقد إندلعت ثورة أيلول وهي بلاشكّ أعظم ثورة للشعب الكردي عبر معاناته التاريخية الطويلة. وهي بحقّ أمّ الثورات لأنها رسمت للشعب الكُردي مساراً تاريخياً جديداً بنقلها نضاله الى مرحلة لا عهد للتاريخ الكردي بمثلها. بالأحرى إنها بدايةٌ لكتابة تاريخ جديد للشعب الكُردي، إذ دفعت بالمسألة الكردية الى آفاق واسعة ووضعتها أمام المحافل الدولية. كما أنها إنفردت عن سابقاتها من الثورات المحلية بشمولها كلّ كردستان العراق، وبتأييد الشعب الكردي المطلق خارج الحدود العراقية. ولم تقتصر على منطقة معيّنة. وأعظم نجاح حققته في نظري هو بثّ المفاهيم والوعي القومي والأفكار الديمقراطية بين أوساط الشعب الكردي في العراق من زاخو حتى خانقين. ومن آثارها أنها أشاعت في هذه الأمة الثقة بالنفس وحققت أمنية طالما كان

يصبو إليها المثقفون والوطنيون الكرد في وحدة الكلمة وتخطي العنعنات والولاءات التقليدية. وتلك عقبات جسام واجهت الثورة في بدايتها، فتخطّتها وأزالتها بعزم وثبات وبحكمة البارزاني وإقدامه وخبرته الواسعة بشؤون قومه: بنواحي قوّته وبكوامن ضعفه. وإني لا أفضح سراً إن قلت بأن قيام الثورة كان في ظروف غير مواتية مطلقاً إذ لم تتهيّأ لقيادتها الإمكانات المادية ولا المعنوية. فالوعي القومي كان طفلاً وليداً يفتقر الى التكامل والنضوج أو القوة التي تعينه على التخلص من أحابيل الولاء العشائري وهي حينذاك سيدة الميدان. كما لم يكن الشعب الكردي معتاداً الضغوط الحكومية والحرب الواسعة النطاق بكل ما يصاحب ذلك من شدة ومعاناة ومخاطر. وبكل ما تفرضه تلك الحرب من أعباء وحرمان وتضحيات. ولذلك وجدنا جزءً هاماً من رجاله القادرين على حمل السلاح ينحاز الى الجانب الحكومي معلناً ولاءه لها وإستعداده للإلتحاق بالقوات المناوئة للثورة. وهؤلاء هم الذين أُطلق عليهم إسم "الجحوش" وهي صفة لاتخفى دلالتها على القاريء فلصقت بهم وتعذّر الخلاص أو التبرؤ منها. وضعتهم القوات الحكومية باديء ذي بدء بمثابة درعٍ واقٍ لسائر القوات النظامية وكنّا نجدهم الطليعة في هجمات الجيش. أهميتهم وخطرهم يتجليان بواقع تكوين الجيش العراقي آنذاك. كان جيشاً هزيلاً ضعيفاً فاقد المعنويات تمزقه الحزازات ومختلف الولاءات الوافدة وصراع الآيديولوجيات بين ضباطه وتعصف به الفتن والدسائس والكره المتبادل بين قياداته. وهنا عليَّ الإقرار بأن هذا الجيش كان سيغدو فريسةً سهلةً للپيشمرگه وكان سيتمّ تحطيمه في أولى المواجهات العسكرية الكبرى مع مقاتلينا لولا هؤلاء المرتزقة الجحوش. وعليَّ أن أقرّ آسفاً ايضاً بالدور الرئيس الذي حققوه في الحيلولة دون إنتصارات حاسمة للپيشمرگه في باديء الأمر بصمودهم وقتالهم الجدّي.

إلاّ أن الوضع مالبث أن تغيّر، فثباتُ الپيشمرگه ورسوخ جذور الثورة، وربّما لسوء معاملة كانوا يشعرون بها أو أحياناً بيقظة من ضمير صاروا يفهمون بأن ما يقومون به هو ضدّ مصلحة الوطن بل ضد مصلحتهم هم أنفسهم بالنتيجة وعلى المدى الطويل. إلاّ أن يقظتهم هذه جاءت متأخرة. فعندما بدأ الوهن يسري تدريجاً في إندفاعهم وولائهم وعندما دبَّ الضعف في ضغطهم على قوى الثورة. كان الجيش العراقي قد تعلم منهم

كثيراً لينسج على منوالهم تاكتيكاً وتحركاً فضلاً عن تزوّده بالكثير من السلاح الحديث، حتى آل الأمر بهم أن صار الجيش يستخدمهم كما تستخدم كلاب الصيد فيبعث بفصائل صغيرة منهم في المقدمة ليكشفوا له مكامن البيشمرگه ومواقعهم التي تحصنوا فيها ثم يبعث بطائراته الحربية لتقصف تلك المواقع أو ليوجه إليها نيران مدافعه البعيدة المدى لتطهيرها تمهيداً لزحفه. وتلك كانت مهمة (الجحوش) في المراحل الأخيرة من الحرب. وقد فصّلنا ذلك في الكتاب وضربنا الأمثلة الواقعية له.

على الصعيد الخارجي، بدت الثورة الكردية في أيلول - واحدة من فرائس الحرب الباردة وضحاياها.

الحرب الباردة التي نشبت عقيب الحرب العالمية الثانية بين الشرق والغرب. وبعبارة أدق بين أعظم دولتين في العالم حجماً وقوة: الولايات المتحدة والإتحاد السوڤياتي. جلبت عقابيلها الكوارث على الشعوب المضطهدة. وفي مقدمتها الشعب الكردي بلا جدال. فقد فتحت للدول التي تتقاسم كردستان باب الإبتزاز وجرّ المغانم على حسابه. كانت تلك الدول تستغل الصراع المحتدم بين هاتين القوتين للعدوان على الشعب الكردي وإنكار حقوقه وملاحقة منظماته الوطنية وهي آمنة من تدخل خارجي أو من محاولة الإنتصار له وتبنّي مظلمته بأي شكل من الأشكال أو درجة من الدرجات من قبل أي طرف من أطراف الحرب الباردة تلك. والحجة في عدم المداخلة أن المسألة الكردية هي مسألة داخلية تعود معالجتها الى الدول ذات الشأن وليس من حق أي قوى خارجية المداخلة أو محاولة نقلها الى الصعيد الدولي ووضعها كمشكلة أمام المحافل والهيئات الدولية - بإعتبارها قضية شعب أنكرت عليه هويته القومية وحقه في تقرير مصيره.

وإتفق أن قامت ثورة أيلول متزامنة مع فترة بلغت فيها حدة الصراع في الحرب الباردة أوجها. وبسبب من هذا عانت الثورة شبه عزلة دولية وإهمالاً. كان طرفا الصراع في هذه الحرب مختلفين في كل الشؤون الدولية لكنهما إتفقا على عدم المداخلة في قضية الشعب الكردي. ولم يطرأ تغيير محسوس بزوال الحرب الباردة وبقي الوضع كما كان.

وإن كان هناك شيء من التظاهر من دولة إقليمية بالتعاطف مع الحركة الكردية الى

حدّ مدّ يد العون لها فكان بهدف التقرب منها ومن ثمّ توجيه ضربة إليها كما فعل شاه إيران.

من آثار الصراع الشرس في فترة الحرب الباردة إعاقة نشر المفاهيم الديمقراطية في العالم، وفسح المجال لقيام أنظمة دكتاتورية تحكمية هي والمباديء الديمقراطية على طرفي نقيض، وكلا طرفي الحرب الباردة كانا شريكين في هذه الجناية الدولية. إذ لم يكن أيُّ طرف يهتمّ بشكل الحكم الذي يسود بلداً ما طالما ينحاز الى هذا الجانب أو ذاك. والنتيجة هي القضاء على كثير من الأنظمة الديمقراطية بالإنقلابات العنيفة وقيام حكومات تتنكر للمباديء الديمقراطية وتقف عائقاً أمام النشاطات الدولية في ميدان حقوق الإنسان والتحرّر. وتلك عقبات جسام كانت تعترض سبيل ثورة أيلول ذات المُثُل والمباديء الديمقراطية الأصيلة وبطابعها الإنساني، لكنها تجاوزتها بعنادٍ وكتب لها الدوام والقوة ونفذت جذورها في أرض الوطن. وأبت أن تَهِنَ عزائمها وهي تجاهد للتعريف بنفسها للمجتمع الدولي بكل الوسائل الميسورة، يشد من عزيمتها قواها المعنوية المستمدة من إستعداد الشعب الكردي بأوسع قاعدة فيه وهي طبقة الفلاحين – لبذل أعظم التضحيات. كان فلاحو كردستان وقود الثورة بحقّ ومنهم قوام البيشمرگه وعلى أشلائهم العزيزة أقيم صرح الثورة وبدمائهم الغالية روّوا شجرتها لتجود بثمارها.

إن الشعب الكردي يقرُّ لفلاحي كردستان بالدَّين الأكبر.

لم تأبه ثورة أيلول ونشاطاتها بمثبطات ومضاعفات الحرب الباردة وسعت لتعريف العالم بنفسها وبأهدافها وبمظلمة الشعب الكردي وعدالة مطالبه والدواعي التي حملته على رفع السلاح. وإهتمت بصورة خاصة بالساحة العربية. ويؤسفني القول هنا أنها لم تَلقَ التجاوب المنشود لا من دولها وأنظمتها ولا من وسائل الإعلام ورجال الفكر فيها، بل وقف بعضهما موقف توجّس وشكٍّ وعداء. كان موقفهما مخيّباً للأمل في حين توقعنا الكثير. كنّا نتوقع أن يكونا على الأقل أكثر تجاوباً من دول الغرب وإعلامها.

لكن ثبات الثورة وصمودها وإنتقالها من نجاح الى آخر وتهاوي الأنظمة العراقية والحكومات بسبب مباشر منها أو غير مباشر أرغمت تلك الجهات على الإنتباه اليها وتسليط الأضواء عليها. وصار يُحسب لها الحساب في ميادين المعادلات السياسية الشرق أوسطية الى الحدّ الذي ألجأ أولئك الذين وقفوا منها موقف عداء الى التقرب منها والتعامل معها في آخر الشوط.

كانت قيادة الثورة تفكّر بواقعية وبعد نظر عندما صاغت لنفسها شعارها المركزي «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكردستان». يدل هذا الشعار على مقدار إهتمام الشعب الكردي وثورته بإقامة حكم ديمقراطي للعراق كما كانت قيادته تدري بأن المشكلة الكردية في العراق لايمكن معالجتها بشكل سليم إلاّ بإقامة نظام حكم ديمقراطي القوام للبلاد.

وبخصوص إدارة الحرب ضدّ قوى الثورة. كانت حرباً بربرية لاتفرّق بين الطفل الرضيع والمقاتل. لم تراعِ فيها القوات الحكومية في أي مرحلة من مراحلها قوانين الحرب التي أقرّتها مؤتمرات جنيف ولاهاي وسائر التعهدات والمواثيق الدولية المتعلقة بإدارة الحرب. كانت حرباً إنتقامية بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى. أسرى الأنصار كثيراً ما كانوا يُقتلون حال وقوعهم في الأسر وكانت هناك قتولٌ جماعية وقبور جماعية طالت العزّل من المدنيين. وإستخدمت هذه الحكومات كلّ ما تيسّر لها من الأسلحة المحرّمة دولياً بدءً بالقنابل العنقودية وإنتهاءً بقنابل الناپالم الحارقة. وإعتبرت كل سكان المناطق المحررة مقاتلين فلم تفرق بين النساء والأطفال ولا بين ساحات القتال وأماكن العبادة ولا بين مقرات الثوار في ذرى الجبال وبين القرى الآمنة البعيدة عن مواطن القتال.

وبعكس ذلك فقد تمسّكت قيادة الثورة بالمباديء والقوانين التي قررتها العهود والإتفاقات الدولية. فلم يقع إعتداء على أسير. وكثيراً ما لفت أنظار المراسلين الأجانب ولاحظوا كم يلقى الأسير من عناية ويُخَصُّ من الأرزاق ما يُخَصّ به البيشمرگه أنفسهم. وإمتدت هذه المعاملة الى أسرى الجحوش والمرتزقة، وهم بكلّ الموازين والأعراف والمفاهيم في عداد الخونة. وفي حين لم يتعفف العدوّ عن إرسال مخرّبيه وإرهابيّيه الى مواطن الثورة لإشاعة الفوضى والرعب وبقصد إغتيال القادة. لم تسمح الثورة بأعمال إنتقامية مقابلة مطلقاً ولم يخطر ببالها أن تمارس عملاً إرهابياً في أيٍّ بقعة من العراق أو خارجه في حين كان ذلك من أيسر الأمور. بل كان تركيزها فحسب على ضرب الأهداف العسكرية الصرفة. وحاذرت القيادة في الوقت عينه من تعريض السكان المدنيين لأيٍّ أذى. وحرصت على أن لاينالهم شرار الحرب. وهو عمل صعب بواقع أنّ غالبية الشعب الكردي كان في حالة دفاع عن النفس. وفي موقف الدفاع عن النفس لايفكر المرء كثيراً في مَنْ يصيبه ومَن لايصيبه.

بقيت الثورة الى الأخير ملتزمة بقواعد ومباديء إدارة الحرب التي رسمتها المعاهدات والمواثيق الدولية. ولم تدع القتال يتخذ صفة قتال بين الشعبين العربي والكردي وباء جميع محاولات الكتّاب والشوڤينيين والحاقدين بالفشل الذريع في تصويرها الحرب كذلك.

ولايفوتني بالمناسبة الإقرار بأن بعض العناصر الكردية المتعصبة كان يسعى الى بثّ مثل هذه المفاهيم عندنا، بدافع من المظالم وصنوف الإضطهاد الذي يعانيه الشعب. وتلك مفاهيم كانت تؤول بالنتيجة الى إعطاء صورة مشوّهة لنضالنا - بحرفه عن هدفه الحقيقي لتكسوه طابعاً إنتقامياً. إلاّ أننا تصدينا بحزمٍ لهذا الإتجاه وأحبطناه بممارستنا العملية وبقينا مرفوعي الرأس فخورين بما حققناه.

وبين هذا وذاك. فإنك لاتجد في كل ما كُتبَ عن ثورة أيلول ولاأستثني أقلام الأعداء. مَنْ إستطاع أن يعزو الى الثورة أو رجالها عملاً إرهابياً واحداً تمّ تلقائياً أو أمرت به قيادة الثورة. وبقيتْ ثورة أيلول ثورة نظيفة من المبدأ الى المنتهى. ومن هنا جاء إحترام كل الأطراف لها. وها نحن اليوم نجني ثمار تلك السياسة والمواقف.

وضعت ثورة أيلول الأسس الرصينة لنضال الشعب الكردي المستقبلي في سبيل التحرر. ولم يكن الوصول الى هذه النتيجة سهلاً. بل كان حصيلة جهودٍ ومصاعب وأهوال وتضحيات حاولتُ أن أقصّ طرفاً منها في كتابي هذا. كانت جبهةُ القتال واسعةً جداً. وكان يقتضي للپيشمرگه والقيادات أن تقطع مسافات شاسعة في الجبال وفي أراضٍ وعرة لا مسالك فيها لتدخل رأساً في المعركة قبل أن تنال أيَّ قسط من الراحة. وبين يديَّ الآن مفكرة البارزاني الخاصّة التي كانت تلازمه ويسجّل فيها تنقلاته الخاطفة أثناء القتال. فللفترة المنحصرة بين الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام ١٩٦١ والعام ١٩٦٢ قرأت أن مقره أضطرّ الى الإنتقال سبعاً وعشرين مرة من موضع الى آخر، إمّا لإدارة دفة قتال أو إتقاءً للغارات الجوية.

أجل، في آذار ١٩٧٥ أصيبت ثورة أيلول بنكسة. إلاّ أن هناك حقيقة تتعلق بالنكسة لايمكنني إغفالها هنا. فلو أن البارزاني قبِل بأيٍّ مساومة على كركوك ووافق على أن تخرج عن الحدود المرسومة للحكم الذاتي لَما إنجرّ الأمر اليها. ومع ذلك فإنه لم يتنصّل من المسؤولية وقبلها على نفسه كما قبلها ايضاً أخي إدريس طواعية. فكانا لنا درعاً

واقياً من تلك السهام المسمومة التي وُجّهت إلينا فيما بعد لا من قبل الأغراب وحدهم، بل من أطراف في القيادة كان قصدهم التهرّب من المسؤولية وهي مسؤولية جماعية تقع على القيادة عموماً.

إن ثورة أيلول لم تُهزم عسكرياً. وإنما هُزمت سياسياً في الواقع. وقد حُرمنا بنتيجة ذلك الملاذ الآمن. وأصبح أصدقاء الأمس أعداء اليوم.

في حينه كنتُ بين أولئك الذين فضّلوا مواصلة القتال الى آخر نَفَسٍ وإطلاقة. وكان قراري هذا عاطفياً صرفاً بدافع من الحماسة والحرص على دوام الثورة. كنتُ في الواقع أفضّل أن تنتهي حياتي فوق أرض كردستان على الرحيل الى إيران، إلاّ أنّي أدركت فيما بعد مخاطر تغلّب العاطفة على العقل ومجانبة الصواب للقرارات التي تصدر عن العاطفة في أغلب الأحيان وهي قرارات تنطوي على مخاطر جسام. ومهما يكن من أمر فلا نقاش بأمر الوالد بالنسبة إليّ.

وظن الكثيرون أن ثورة أيلول بلغت خاتمتها في العام ١٩٧٥ وكانوا واهمين. وربّما كان مصدر هذا المنحى في التفكير هو وقوع النكسة بشكل فجائي وغير منتظر، الأمر الذي حال دون وضع مشاريع ومخططات إدامة آنية. إلاّ أننا تمكنّا في فترة وجيزة من وضع أسس جديدة ومخطط للعمل مع إصدار قرارات هامة تتعلق بإدامة الحركة المسلحة وعلى هذا الأساس تمّ تشكيل مفارز مسلحة من قدماء البيشمرگه المبرزين في المعارك السالفة. وعبرت الحدود مع التنظيمات الحزبية الداخلية وبدأت في ٢٦ أيار ١٩٧٦ بالإعلان عن ثورة مسلحة عُرفت بثورة گولان وهي في الحقيقة إمتداد لثورة أيلول المجيدة.

وأستؤنفت العمليات الحربية وتواصلت دون إنقطاع وكان البيشمرگه كما عهدناهم دوماً مستعدين للتضحية والفداء ولخوض المعارك ضد عدوٍّ فاق سلفه عدداً وعدّة وشراسة بما لايُقاس. وبقيت فصائل البيشمرگه تقضّ مضاجع العدو وبقيت تنظيمات الحزب دائبة على تثقيف الجماهير وتعبئتهم فكرياً. رغم صنوف التنكيل والقتول الجماعية وعمليات التهجير التي لجأ إليها الحكام الجدد.

وأعود لأقول ها نحن اليوم نجني ثمرة صمود تلك الفصائل البطلة ونتائج تلك المقاومة العنيدة والتضحيات الجسيمة.

لا نية لي هنا في التنصّل من مسؤولية نكسة العام ١٩٧٥ وأنا شخصياً مستعد

لتحمّل التبعات عن البارزاني وعن أخي إدريس وعن نفسي فحسب، وعلى الآخرين مراجعة أنفسهم وأتمنى أن يجدوا في نفوسهم الجرأة على الإقرار بقسطهم فيها. لكن - والله شاهدٌ على ما أقول- إن كلّ ما قمنا به وكلّ ما رسمناه كان باعثه صدق النية والإخلاص اللامتناهي لقضية شعبنا الكردي وفي سبيل حريته. وكثيراً ما كان المرء ضحية مبادئه وإخلاصه وصداقاته، لاسيّما إيمانه بصدق جهاتٍ أو هيئات أو حكومات لاتهتمُّ بغير مصالحها الخاصة وحيث لاتجدُ سياستُها مكاناً للمباديء والقيم الإنسانية والأخلاقية.

لم يتنصّل البارزاني قطّ من المسؤولية ولم يتهرّب منها. ولم يدّعِ لنفسه العصمة مطلقاً. فهو بشرٌ عرضة للخطأ والإصابة. وقلّما كان يخطأ، وهو من طبع القائد الملهم. كان التواضع والبساطة طبعاً فيه فلا تكلّف أو إصطناع موقف وسيبقى رمزاً حياً لوحدة هذه الأمة وشرفاً لنضالها مهما حاولت تلك القلة المغرضة الحاسدة الحاقدة نشر الظلال القاتمة على دوره الكبير أو تشويه حياته النضالية. إن من يقدم على هذا فهو يزوّر التاريخ ويسيء الى نضال أمةٍ ورمزها.

هناك سؤال مركزيّ بالغ الأهمية مازال يطرحه كثيرون. ومازال يراود أذهان الكثيرين. ما الذي حمل البارزاني على إصدار قراره بوقف عمليات الثورة العسكرية إثر عقد إتفاق الجزائر ١٩٧٥؟

أُعطيَ هذا القرارُ تفاسير كثيرة، وواجه تحليلات عديدة. ومنها ما صدر من عناصر مخلصة قريبة من البارزاني ترفض أن تتحرى الجوانب السلبية في أيّ عمل أو إجراء يتخذه هذا القائد. ومنها ما صدر من عناصر عدوّة حاقدة ترفض أن ترى الجوانب الإيجابية في أيّ عمل. هذه العناصر وجدت فرصة العمر في النكسة للنيل من شخص البارزاني والعمل على نشر ظلال الشك في تاريخه النضاليّ الناصع.

وعليّ الإقرار هنا بأنّ ما نعرفه اليوم عن المصالح الدولية وإصطراعها وتعقيداتها. وعن خلفيات صنع القرارات المصيرية عند الدول العظمى لم تكن لنا فكرة عنه أو دراية به أثناء الثورة. فضلاً عن أهداف قطبَيْ الحرب الباردة وإصطراعهما المرير في منطقة الشرق الأوسط على الأخصّ ومبلغ إنعكاسها على أوضاع الشعب الكردي وثورته.

عندما حلّت بنا نكسة العام ١٩٧٥ ألفينا البارزاني شيخاً يبلغ من العمر إثنين

وسبعين عاماً. وهو عمر جاوز سنّ التقاعد الرسميّ في كثير من بلدان العالم بأكثر من سبع سنين، يرغم صاحبه على الإخلاد الى الراحة التامة والإقلاع عن الإتيان بأيّ عملٍ مجهد. فما بالُك بقيادة حرب عصابات تشمل مناطق واسعة تزيد مساحتها عن مساحة لبنان بثلاثة أضعاف بكل جبالها السامقة ووديانها العميقة ومسالكها الصعبة؟

ولا أفضح هنا سراً عندما أذكر للقاريء بأن البارزاني كان قد أُبتلي بمرض خطير ظهرت آثاره فيه في حزيران ١٩٧٤. وقد قضى معظم صيف ذلك العام يتلقى العلاج في طهران. ولم يكن هناك من سبيل للعلاج في الخارج.

لم يكن بمقدور البارزاني وهو في هذا الوضع الصحي الخطير - مواصلة القيادة. وفي تلك الظروف الصعبة التي خلقتها للثورة تلك المؤامرة الكبرى، سيّما بعد أن وضح لدينا مداها وسعتها بشكل فاق أبعد تصوراتنا. وبعد أن تأكد الإتفاق العسكري بين الحكومتين الإيرانية والعراقية القاضي بالتنسيق والتعاون على تطويق الثورة بغية القضاء عليها. وعندما تخلى عنّا كل مَنْ أظهر الصداقة لنا، دون وازعٍ من ضمير.

في رأيي -وبعد تنحية العواطف جانباً- أنّ قرار البارزاني بوقف مسيرة ثورة أيلول كان أعظم تضحية من عدة تضحيات قدّمها هذا القائد لأمته. فقد جازف بسمعته، بماضيه وحاضره ومستقبله، وبتاريخه النضاليّ ايضاً من أجل أن يجنّب شعبه كارثة لامراء فيها.

وكان على صواب. في حين كنّا نجري منساقين وراء العاطفة. وها نحن الآن نجني ثمار حكمته وإصابة تقديره.

لم ينسَ له الشعب الكردي قاطبة دوره العظيم في قيادة حركته التحررية وإمساكه بدفّتها بحزمٍ وسط أعاصير الحرب الباردة. وقد تجلّى ذلك عندما إستقبل جثمانه في ١٩٧٩/٣/٥ وهو في ديار المنفى تلك الألوف المؤلفة. وشيّعته بالدموع والهتاف والحماسة كما يُستقبل القائد المظفر. كان بين القادة الأفذاذ القلائل الذين فرضوا زعامتهم بفضل مواهبهم القيادية وإخلاصهم المطلق للقضية التي ناضلوا من أجلها.

في اليوم السادس من شهر تشرين الثاني ١٩٥٨. كانت عودة البارزاني من الإتحاد السوفييتي إيذاناً بوحدة الأمة وفي اليوم السادس من شهر تشرين الثاني ١٩٩٣ عادت روح البارزاني لتجمع شمل الأمة.

ستبقى ثورة أيلول مصدراً لايُستغنى عنه لإستمداد الدروس السياسية والعسكرية

والإقتصادية والإجتماعية وعلى العاملين في الحقل الوطني والأجيال التي ستأتي بعدنا أن لايغفلوا عن المُثُل التي ترسمها تلك الثورة والخط الذي إنتهجته وأن يستمدوا منها التجارب والعبر.

هناك درس مركزي ترسمه لنا هذه الثورة. وهو أن نحرص على وجودٍ دائمٍ لنا في الساحة ليحسب الآخرون حسابنا. وعلينا أن لانظنّ قطُّ بأن جهةً ما مستعدة للتضحية بمصلحتها في سبيلنا، أو معاونتنا بدون عوض. ولندرك بأن هناك من يعرض الصداقة والتعاون. فإن قبلنا فعلينا أن نضع في حسابنا مقدماً أن هذا العرض مأتاه مصلحته الخاصة وعلى هذا الأساس نبني صداقتنا. هناك جهات كثيرة نعلم بأن صداقتنا تتفق مع مصلحتها. إلاّ أن مصلحتنا من تلك الصداقة هي الوصول الى هدفنا النهائي أي السير بقضيتنا الوطنية الى هدفها المنشود. وعلينا أن ندرك أنه وبدون حلٍّ عادل شاملٍ للمسألة الكردية لن يَحلّ السلم ولايسود إستقرار في منطقة الشرق الأوسط وبتقديرنا هذا علينا أن نتابع بدقة وإستمرارية وموضوعية المتغيّرات المتسارعة في العالم وأن نتجنّب آفات العزلة. بل نقدّر مواقعنا من هذه المتغيرات ونرسم خطّنا في العمل والنشاط القومي بشكل واضح معتدل بعيداً عن الطيش والتهوّر والتطرف والعاطفة والمشاعر الذاتية. وأن نحاذر الوقوع في هاوية التلوّن والمخاتلة أي أن نكون مع هذا الجانب وضدّه في آنٍ واحد. ففي هذا إنتحارٌ بطيء لاشكّ فيه.

وعليَّ أن أشير هنا الى أنّ الثورة حرصت دائماً على إستقلاليتها في القرار السياسي مع عدم الإغفال بأنّ العامل الجغرافيّ كان وسيبقى متحكماً في هذا القرار مهما حاولنا تجاهله أو تخطيه.

في عين الوقت علينا أن نضع نصب أعيننا محاولة الإكثار من أصدقائنا والتقليل جهد الإمكان من خصومنا بكلّ ما يقتضيه هذا من صبر وأناة ونَفَس طويل وأنْ نقف دوماً في وجه محاولات العناصر المتطرفة سواء أمنْ جانبِ الدول التي تقتسمُ كردستان أو الأطراف الكردية التي تحاولُ أنْ تجعل من النضال الكرديّ حرباً بين الشعوب لا بين شعبٍ مضطهَدٍ وحكوماتٍ جائرة.

هناك مسألة أخرى علينا أن نوليها إهتماماً خاصاً: إن الحكومات في الإقليم كانت قد بذلتْ وستبذل جهوداً عظيمة للحيلولة دون أن يكون للكرد قرار واحد. وقد ظهر

ذلك في أوضح صورة عندما تمّ طرد الإتحاد الوطني الكردستاني الى إيران في أيلول ١٩٩٦ ثمّ أعيد بإتفاق من دول الإقليم. مع عدم نسياننا مطلقاً بأن مرجعنا الأول والأخير ومصدر قوتنا هو شعبنا وهو حليفنا الستراتيجي.

***

عندما أقدمتُ على تسجيل وقائع ثورة أيلول خيّل لي أثناء التدوين وكأني أمرّ بمشاهد فلم سينمائي، ولولا الوثائق والأسانيد التي إعتمدتها والذكريات التي إختزنتها في ذهني والملحوظات التي دوّنتها لما بدت إلاّ طرفاً من نسج خيال، أو رواية من الروايات التي تتفتق عنها عقول الروائيين والقصصيين.

وأدركتني خلال ذلك - الحيرة فيما سأفرده بالتدوين وما سأُسقطُه. فثورة أيلول تزخر بالأعمال البطولية والمآثر الخارقة التي تُعجِز الأقلامَ وتجلُّ عن الوصف. ولو أنّي أطلقت العنان لقلمي وعمدت الى تدوين كل عملٍ بطوليّ للپيشمرگه خلال صراعنا المرير لإقتضى ذلك منّي أضعاف ما في هذا الكتاب من وقائع. وقد إقتصرتُ لهذا السبب على إيراد نماذج وأمثولات.

كان لي بين هؤلاء الأبطال أصدقاء أعزاء. ضحّوا بأنفسهم وسقطوا صرعى في سوح القتال ليتركوا في نفسي ذكريات أليمة ولتبقى صورهم حية لاتبارح ذهني وكثيراً ما أحضرتها وإستعدتها مصحوبة بألمٍ وحزن. هؤلاء الذين إسترخصوا أنفسهم ليعيش الآخرون أحراراً. وذكرى أخي إدريس بينهم لاتفارقني قطّ. والدنيا من دون أصدقاء لاتعني الكثير. على أنّ ما يُدخل العزاء والراحة الى نفسي هو إدراكي بأن دماء هؤلاء الخالدين لم تذهب هدراً. وأن ثمرة شهادتهم هي ما نرى عليه أنفسنا اليوم من كيان سياسي، وحرية تعبر عنها حكومة وپرلمان وأجهزة إدارية. فضلاً عن رخاءٍ إقتصادي عزّ على مناطق أخرى من البلاد.

وكما أشرتُ في صدر مقدّمتي إنّي حاولت في هذا الجزء من مسلسلي «البارزاني والحركة التحررية الكردية» تدوين وقائع ثورة أيلول منذ بدايتها في ١٩٦١ حتى النكسة في ١٩٧٥ مستعيناً بما دوّنتُهُ من ملاحظات في حينه ومعتمداً على الوثائق التي حرصت على جمعها ووقايتها من الضياع والتلف متوخياً في كتابتي الصراحة

التامّة والنسق التاريخي في تسلسل الوقائع والأحداث. مدلياً برأيي الخاص في هذه الواقعة أو تلك حيثما شعرت بلزوم ذلك. وأنا لا أدّعي لنفسي العصمة فيما كتبتُ ودوّنت. إلاّ أنّي حاولتُ أن أبعد عنّي التأثيراتِ العاطفية وأخرج نفسي من دائرة التحيّز وعدم الحياد. وكلّ قصدي أن يكون كتابيَ هذا مع الوثائق التي ضممتها إليه واحداً من المراجع المعتمدة في دراسة ثورة أيلول. ومعيناً يمتار منه الباحثون والمؤرخون لايخلو من فائدة للأجيال القادمة.

وأعود لأؤكد بأني لا أعدُّ كتابي هذا تاريخاً كاملاً يستوعب وقائع ثورة أيلول برمّتها. وليس من أغراضه إنتقاصُ قدر أحدٍ أو رفع مكانة أحد. ولا ذمّ هذا أو مدح ذاك. فقد سَرَدتُ الوقائع وأثبتُّ أدوار الأشخاص كما حصلت فعلاً وكما رأتها عيني.

ختاماً لايسعني إلاّ أن أطلب المعذرة من أولئك الأبطال والمناضلين الذين لم يرد لهم ذكرٌ هنا لا متعمّداً ولا مفاضلاً وإنّما لحرصي على مقتضى السياق ليس إلاّ.

وسأكون شاكراً جداً لو تفضّل الباحثون والمتتبعون عليَّ بالتعليق والنقد، والإستدراك لما غفلت عنه. فهو جزءٌ من خدمة الحقيقة وتطهير التاريخ من الوقائع المدسوسة والأحداث المختَلَقة. وأنا لست كاتباً ولا أعدّ نفسي بين المؤرخين والباحثين إلاّ أن الإمتياز الذي نلته بحكم وجودي في مركز صنع القرار، ثم صيرورتي واحداً من هيئة ذلك المركز حمّلني واجب تدوين ما وقفتُ عليه، وما شاركتُ فيه وهو جزءٌ من حياتي ايضاً.

أدعو الله أن يجنّب الشعب الكردي مزيداً من التضحيات والنكبات وسائر الشعوب الأخرى المناضلة في سبيل حريتها وأن يبلغها أهدافها وأن يحلّ الصفاء والمودّة بين الشعوب بدل الكراهية والبغضاء والتعصّب الأعمى. وعلينا جميعاً إستخلاص الدروس والعبر من الماضي للحيلولة دون تكرار المأساة ولبناء مستقبلٍ آمن وسعيد.

وأخيراً نيابة عن والدي وأخي إدريس وبالأصالة عن نفسي أقدّم الإعتذار الى الأمة الكردية عن كلّ ما يستوجب الإعتذار. والله المستعان.

**مسعود البارزاني**
**٢٠٠٠/٥/١٢**